الباب العاشر

في القضاء

"كن من السلطان كما أنت من النار، تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق".

أبو حنيفة

obeikandl.com

كانت وظيفة الحكم في الكوفة علام لا يغبط عليه من وسد الأمر إليه وكان هم الولاة المقيم المقعد أن يستقضوا عليه أفقه الفقهاء.

فإذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالي..

ولي "شريح" القضاء فيها لعمر بن الخطاب، فلعثمان بن عفان، فلعلي بن أبي طالب، ليظفر منه بقوله: "أنت أقضى العرب". وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثي قرن في عمله، لم ينقطع إلا ثلاثة أعوام في فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج فأقاله، ومات في العشرين بعد المائة من العمر وفي الثمانين من الهجرة.

وتلاه "الشعبي". وما أدراك من الشعبي! بعثه عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم. فلما قفل راجعا سلمه الملك خطابا إلى أمير المؤمنين. وقرأ عبد الملك الخطاب فإذافيه: "عجبا من أهل ديارك! كيف لم يستخلفوا رسولك!!" قال الشعبي: "يا أمير المؤمنين أرادأن يغريك بقتلي حسدا...".

وبلغ ذلك ملك الروم فقال: لله در أبيه، ما أردت إلا هذا.

جلس الشعبي للقضاء نحوا من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ فخلف من بعده الأستاذ الأول لأبي يوسف، محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى حتى سنة ١٤٧.

وكان طبيعيا أن تشرئب الأعناق إلى أبي حنيفة ليتولى منصب القضاء، بعد أن جلس مجلس ابن مسعود في الإفتاء، فاتجه إليه يزيد بن هبيرة عامل مروان على العراق (١٢٧ – ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق في أخريات أيام بني أمية.

جمع يزيد ببابه ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وداود بن هند، وولى كل واحد منهم صدرا من عمله، وتنازل لأبي حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون في يده خاتم الدولة يختم به كل أمر، وجعل له حق إنفاذ الأحكام التي يصدرها القضاة، والخراج أيضا، وختم أوامر الوالي، فرفض أبو حنيفة،وألح يزيد وأشار أصحاب أبي حنيفة عليه بالقبول فقال: "لو أراد أن أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب، فوالله لا أدخل في ذلك أبدا..".

قال ابن أبي ليلى: دعوا صاحبكم فإنه هو المصيب.

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط. قيل: ضربوه مائة سوط وعشرة، كل يوم عشرة أسواط، فلم يزده العذاب إلا ثباتا.

لكن للدولة مآرب أخرى في رضى الأستاذ، فإن لم تفلح في أن تضمه إلى رجال الحكم فلتمدد إليه بسبب من الأسباب: عرض عليه يزيد أن يسلكه في الطراز (بيت المال) – لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء، وأغنى عن الحلفاء، فأبى.

وقيل إنه ترك الكوفة إلى مكة سنة ١٣٠ وبقى إلى جوار بيت الله بضع سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور.

كان العراق إقليما ثائرا على ما وصفنا، وكانت الكوفة عنوانه، لا يقتصر شغبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم إلى الولاة والقضاة.

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءته امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينيها فقال له: يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة إلا مظلومة! قال يا شعبي إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون!!

وكان ذلك أيم لم يألف الناس أن يتباكى الظالمون كما يتباكون في القرن العشرين، كضاحك المزن، دمع ولا حزن.

ودخل على الشعبي في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها وكانت بارعة الجمال، فلما فرغت من بيانها التفت القاضي إلى المدعى عليه يسأله وما دفاعك؟

فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الأبيات:

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها

فتنته بدلال ... وبخطى حاجبيها

قال للجواز قربـ ... ـها وأحضر شاهديها

فقضى جورا على الخصـ ... ـم ولم يقض عليها

والجلواز في الفارسية، هو الحاجب في العربية أو الشرطي.

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في دمشق. فلما دخل عليه الشعبي ذات يوم ضحك وقال: فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها..." وسأل القاضي: ماذا فعلت بالرجل؟ قال: أوجعته ضربا يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وما افترى به علي، قال: أحسنت.

كان المنصور يقول لخاصته: ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم،قيل له يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الحق لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية، فإني عن ظلمها غني، والرابع صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة.

وكامن ولاة البريد في الآفاق يكتبون إليه أيام خلافته بسعر القمح وكل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به القاضي وما يرد بيت المال، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب. ويكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة. فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك. وإن تغير شئ عن حاله كتب إلى الوالي والعامل. وإن شك في شئ مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئا عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه.

لقد تغير العراق في الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد إذ كان مجرد قطر من الأقطار. ولقد بويع السفاح في سنة ١٣٢هـ – ٧٤٩م بالأنبار، ثم انتقل إلى الهاشمية،وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦هـ (٧٥٤م) فبدا له أن يبني عاصمة للدولة غير الكوفة،وجعل يرتاد المواضع حتى وصل إلى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع، وشرع يهدم مدينة إيوان كسرى وينقض القصر الأبيض ليدخل الأنقاض في بناء بغداد، ثم كف لكثرة التكاليف. وتخير لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصر له (الخلد) في وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار،ثم حشر إليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتاها الناس من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيا. وبلغ سكانها، نحو المليونين في عهد حفيده الرشيد (١٧٠ – ١٩٣) – (٧٨٦ – ٨٠٨).

هذه المدينة الكاملة التي أنشأها، وهي بغداد، كان يعوزها ما كمل مجد إسبارطة. اسم كاسم "ليكرج"، وما أجمل مجد أثينا، مشرع مثل "صولون".

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذي يضع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة. فأشخصه أبو جعفر إلى بغداد فشخص إليها.

هناك دعاه إلى ولاة القضاء في بغداد، وقيل في الرصافة التي بناها لولده املهدي، وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده إلى جميع كور الإسلام، أي إلى الوظيفة التي أنشئ لأبي يوسف في عهد الرشيد.

كان أبو حنيفة يعلم قول النبي ﷺ: "القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار. قاض عمل بالحق في قضائه فهو في الجنة، وقاض علم الحق فجار متعمدا فذلك في النار، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا في النار"، كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة والسلام:"يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة قط" ويعلم حديثه الآخر: "ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للأمناء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا".

وكان يعلم ما يتناقله الرواة عن عثمان بن عفان إذ نادى عبد الله بن عمر: "اذهب فاقض بين الناس" قال: أو تعافيني يا أمير المؤمنين؟ قال: وما تكره من ذلك، وقد كان أبوك يقضي؟ قال:"إن أبي كان يقضي فإن أشكل عليه شئ سأل رسول الله ﷺ. فإن أشكل على رسول الله ﷺ سأل جبريل، وإني لا أجد من أسأله..".

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب بن ضنة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب، وكان ابن ضنة حكما في الجاهلية،فلما عرف ما دعى له قال: "والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن نجاني الله منها".

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجئ بالسيف والنطع، فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح داري وقد اشتقت للقاء ربي... ولما رأى الأمير إقباله على ربه حرمه من لقياه وأعفاه. ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء.

ولما أقبل ابن أبي الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضي البصرة إياس قال إياس: مرحبا وأهلا بأبي مطرف وأجلسه معه ثم قال له: ماجاء بك؟ قال: لأشهد لفلان قال: ومالك والشهادة، إنما يشهد الموالي والتجار والسوقة! قال: صدقت، وانصرف من مجلسه راضيا فقالوا له: إنه خدعك. إنما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها!!

قال: "لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب".

وهكذا كان القاضي في عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة إلى ذكاء إياس – مضرب المثل في الذكاء – ليحتفظ باستقلاله!

كان الشيخ يعلم ذلك. لكنه لا يتردد أمام تبعاته، وإن ما فيه من زكانة وعلو همة ليمنعه من التردد وإن به لفطانة وسموا عن الهوى تحميان عقله أن يجور.

وما تبعات القضاء شيئا مذكورا إذا قيست إلى تبعات الفقهاء.

لقد كان شريح يقول: "أنا أقضي ولا أفتي" فكان قاضيا، لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتيا.

ولكل مقام رجال، فالقاضي يقضي في قضية بذاتها، أما الفقه فيشرع القواعد للقضاء وللمتقاضين أجمعين – ولهذا يربو خطأ الفقيه على خطأ القاضي مرات.

قال سحنون: "إنا لله. ما أشقى المفتي والحكم" وقال: "هأنذا يتعلم مني ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق! أما كنت عن هذا غنيا؟ ذلك بأن فتوى الفقيه – على حد تعبير ابن القيم – شريعة عامة تتعلق بالمستفتي وغيره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردي لا يتعدى إلى غير المحكوم له.

إنما يقوم المفتي في الأمة مقام النبي، وكما قال عليه الصلاة والسلام: "إن العلماء ورثة الأنبياء. والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم".

فليؤد العلماء إذن أمانتهم، وليوزعوا في الناس ما ورثوا من الأنبياء، وإنها لأمانة تنقض الظهور وتؤود أقوى الأقوياء على القضاء.

وإذا صح قول الشافعي: "من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق" فإن أبا حنيفة فقير مع كثرة ماله وغني بالله عن العالمين.

وإنما هي الوظيفة في خدمة السلطان يقف أمامها متسائلا.

ماذا عن الغد؟

إنما هي عظات الماضي ينشرها بين يديه. والماضي مرآة المستقبل.

ففي مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندي بمصر رجلا من الأهالي فسجنه القاضي وأخرج الوالي الجندي السجين من سجنه فلم يك من القاضي إلا أن ترك وظيفته... ومن قبل ذلك في مصر أيضا (سنة ٨٩) أقام القاضي ابن شرحبيل الحسني الحد على كاتب الوالي لشربه الخمر فعطل الوالي قضاءه فاستقال.

وكانت تسيل بالأنبياء أعناق المطي في الصحراء، مثلما تسيل الآن بالأنباء موجات الهواء واهتزازات الكهرباء، كما كان يتناقلها أعضاء المؤتمر العام، الذي ينعقد كل عام، إذ يلتقي الحجيج في جوار البيت الحرام.

استعرض الإمام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعا خلت من عمر الدولة العباسية لا يأذنون فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون إلا أن تكون كلمتهم هي العليا... وهو أدرى الناس بما يجب للقضاء من استعلاء،وما يلقاه رجله من ابتلاء. وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم إمام مرو عندما أعلمه أنه ابتلي بالقضاء "ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار من الناس. وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجا...".

وعقب على ما فات بتلك الآيات التي يبعث بها القرن الثاني إلى القضاة في كل العصور "فإذا جلس الخصمان فسو بين الضعيف والقوي والشرف والوضيع في المجلس والإقبال والكلام.. ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون إلا أن يأخذا في فضل فتمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك. ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات ورددهم مجالس لعلهم يصلحون".

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله: "من جعل قاضيا فهو كالغريق، إلى متى يسبح وإن كان سابحا".

وراجع نفسه كرة أخرى إذ يقول لتلاميذه في داره: "أنتم مسار قلبي وجلاء حزني قد أسرجت لكم الفقه وألجمته... فسألتكم بالله، بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم، لما صنتموه عن ذل الاستئمار".

وإن منهم من سيرفض القضاء غدا لأبي جعفر كزفر، وإن منهم من سيرفضه بعد غد للرشيد كوكيع.

فلما دعا الرشيد تلميذي أبي حنيفة وكيعا وحفص بن غياث ليليا القضاء أبى وكيع وقبل حفص. فخاصم وكيع حفصا حتى مات.

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهرا مكبرا وفي سرعة "الأفلام". وراح يستنبط على طريقته ويقيس ويستحسن،واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر إلى القضاة يلومهم إذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره، واستوقفه أن يكتب عنهم ولاة البريد كما يكتبون عن العمال،واسترجع قوله عليه الصلاة والسلام: "إن قليل العمل مع العلم كثير. كما أن كثيره مع الجهل قليل". وقوله: "تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا..".

فليبتغ الأجر من الله بالعمل في سبيل الله لا في سبيل الخليفة. وإذا كان أبو جعفر يجاهر بإعجابه بالحجاج قائلا "ليت لي مثله"! وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من قتل العلماء والتمثيل بهم حتى ليحرف عن القبلة سعيد بن جبير كي يصلي وتضرب عنقه.

إذا كان ذلك أبا جعفر، وهذا هو الخطر، فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه الخطر، فحزم أمره واستخار ربه فخار له. ورفض ما طلبه إليه أمير المؤمنين.

وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين.

وحلف أبو جعفر ليفعلن. فحلف أبو حنيفة ألا يفعل. وقال: إني لا أصلح للقضاء.

قال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟

قال أبو حنيفة: أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه مني.

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس في الوقت ثم دعا به. قال: أترغب عما نحن فيه؟ قال: أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء.

قال الخليفة: كذبت.

فانطلق أبو حنيفة يقول: قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنه ينسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذبا فلا أصلح، وإن كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح.

وطفق أمير المؤمنين ينازله في الأمر وهو يقول: اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب. ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات لاخترت أن أغرق. ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك... وكيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب!

قيل: وداروا به في الأسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن. وقيل: إن الوزراء نصحوا أبا جعفر بإخراجه من السجن وجعله في منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان، وقيل بعد أيام معدودات.

وقالوا:إنه ضرب مائة سوط أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطا. حتى سال الدم على عقبيه. فقال عبد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة للخليفة: سللت على نفسك مائة ألف سيف. هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق. فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم. مكان كل سوط ألف درهم. فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له: لو تصدقت بها. قال أيوجد عندهم الحلال...؟

obeikandl.com

هكذا حبس الرجل الذي ظلت الحرية نصف قرن اسما هو مسماه، والذي عاش سبعين عاما يصنع الحرية بيده صنعا ويخلقها في تلاميذه وفي تعاليمه. حبس الجسم من ذلك القلب الذي لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو صفد.

إن مقاييس هذا العالم وقيوده للناس وللولاة ولكنها ليست للعباقرة.

* * *

تلك كانت القضية الأخيرة التي سمع فيها قول أبي حنيفة نقل التاريخ إلينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل. وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا.

فكيف يولي الخليفة على القضاء رجلا كذابا إن صح قول الخليفة، فإذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى:

كيف يتولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين.

وكيف تسخر الدولة العلماء. وكيف يخدم الأئمة الخلفاء.

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التي حمل فيها كرامة العلماء في عصره وكرامة الرأي الإنساني في الأعصر كافة، وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية. وما أفتك الطعنة إذا أصابت الرأس، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء..؟

ولئن كان في كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب، إنها ليسيطر عليها القلق والعذاب والاسترهاب.

قالوا: دخل شريك يوما على المهدي فقال له المهدي: لا بد أن تجيبني إلى خصلة من ثلاث: أن تلي القضاء أو تحدث ولدي وتعلمهم أو تأكل عندي أكلة. ففكر ساعة ثم قال: الأكلة أخفها على نفسي. قال الفضل بن الربيع: "فحدثهم والله. وعلم أولادهم. وولي القضاء لهم".

لله در أبي حنيفة فيما قال لأبي يوسف عن السلطان إذ تفرس فيه أنه سيلي القضاء... "فكن منه كما أنت من النار، تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق وتتأذى منها، فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه...".

وما رمى أبي جعفر لأبي حنيفة بالكذب إلا الخطوة الأولى. وقد خطاها، فماذا كان يخفي له الغد من نزوات، وأي نذر كانت تلك النذر...!

لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر. وإن التاريخ ليعرف أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة، ويشهد أن الذي صدق هو الإمام وأن الذي كذب هو الخليفة..!

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عاليا، ورفع صوته جهوريا مدويا – فلن يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء، بل هو كان أجدر الناس بأن يقول للمنصور ما قاله الزهري من قبل لهشام بن عبد الملك: والله لو ناداني مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت!

ولم يجر في بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبي جعفر من النجاح، ما قدر مع الرشيد لأبي يوسف. ولئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين الدين والدنيا وتعظيم السلطان، لقد كلفه ذلك كثيرا من عبقرياته!

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع قرن.

لكن لأبي جعفر من الحق على التاريخ أن يزن رأيه التاريخ. فلقد أهمته وظيفة القضاء، على ما أسلفنا من المقال. وما كان أعظم حاجة البلدة التي تحمل اسمه (بغداد – مدينة المنصور) إلى أبي حنيفة، في حين لم يكن بأبي حنيفة حاجة إلى تلك البلدة أو إلى الرجل الذي تحمل اسمه، وفي عصر قال فيه ابن المقفع: "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك" وفي عهد كان يستباح فيه من أجل الدولة ما لا يباح.

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذي لا يزول، وفي سيرته من التدلي والسمو ما لا مشابه له إلا في سير أفذاذ الساسة والمؤسسين. كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوي أشياؤها وتنبسط، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تستمر في تحليقها السماوي، فتربطها بطبائع الغاب. والظفر والناب.

في هذا الرجل عدالة عمرية وفيه خيانات دونها الكثير من الخيانات.! اختلف مع زوجته (أروى) أم المهدي، فجعل لها أن تختار قاضيا في خصومتها واختارت قاضي مصر غوث بن سليمان. فحمل القاضي إلى العراق ووكلت خادما لها ليخاصم الخليفة في مجلس القضاء. فقال غوث لأبي جعفر: "إن رأى أمير المؤمنين أن يساوي الخصم في مجلسه"؟ فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها في كتاب الصداق، وقضى القاضي ضده.

وكانت آية إعجابه بحكم غوث بن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بغربته فرده إلى ضفاف النيل.

وكتب إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة أن ينظر في أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة. وكانت الأرض في يد التاجر. وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها إلى القائد. فأبى القاضي، فكتب إليه: "والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد"، فكتب إليه سوار: "والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق"، واستقبل أبو جعفر تحدي سوار وجهارته بصياح الفرح فقال: "ملأتها عدلا. وصارت قضاتي تردني إلى الحق".

واستقضى الليث بن سعد إمام مصر بل قيل إنه عرض عليه ولايتها فأبى.

واستقضى يحيى بن سعيد الأنصاري إذ استقدمه من المدينة إلى الهاشمية.

واستقضى عبد الله بن وهب. فلزم ابن وهب داره واتخذ منها مخبأ!...

فهدم الوالي عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ في صحن الدار فناجاه: "ألا تخرج إلى الناس فتقضي بكتاب الله وسنة رسوله"! فرفع رأسه وقال: "إلى هنا انتهى عقلك؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين؟"

وسمع الناس ابن وهب يقول: يا رب يغدو عليك إخواني غدا علماء حكماء فقهاء، وأقدم عليك قاضيا، لا يا رب ولو قرضت بالمقاريض..

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله (المعتزلة) ليحملوا معه تبعات الحكم فرفضوا.

كان أبو جعفر بناء مثاليا من بناة الدول وافدا من الميدان – والسنة في الميدان سنتان – فيه عزمات الفتوة والتفاتات المحنك. فأخذت يسراه تبطش بخصوم الدولة، وانطلقت يمناه في بسط وإيناس، تحمل ميزان المعدلة في الناس...

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضا كان شحه مضرب الأمثال، حتى ليسمى بالدوانيقي أو (أبي الدوانيق) والدانق ٦/١ درهم.

طلب إليه سوار (القاضي) أن يسوي أجر كاتبين لسوار – مرتب أحدهما أربعون درهما ومرتب الآخر عشرون – فكتب أبو جعفر إليه أن ينقص ذا الأربعين عشرة، وأن يزيد ذا العشرين عشرة! وإنما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين!!

ولما علم أن ابنه المهدي وهب عشرين ألف درهم لشاعر، استرجع من الشاعر ستة عشر ألفا!!

وقال له: إن المهدي غر خدعته ولا يعرف قيمة المال!

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بني العباس مليون درهم ليجعل له دارا ومكانا...

وبينما يصيح بأنه ملأ الأرض عدالة، ويجمع حوله التواقين إلى العلم وعشاق الحكمة، إذا بنفسه تسول له أن ينقض العهد الذي عاهد عليه يزيد بن هبيرة بعد مفاوضات تظل الشهود يختلفون فيها أربعين يوما، فلما انصرف يزيد من مجلسه قال أبو جعفر: عجبا ممن يأمرني بقتل مثل هذا...!

لكن القائل أبو جعفر. فلا عجب إذا كان القاتل أبا جعفر.. لقد قتله وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (في العهود وفاء لا غدر)!

ودعا إلى قصره أبا مسلم الخراساني الذي أخرجه وأخاه من مخبئهما في الكوفة من بضع سنين ليمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى إلى سنة ٦٥٦هـ في بغداد، وخلافة تبقى إلى سنة ٩٢٣ بمصر، دعاه إلى قصره مبيتا له بليل، حتى إذا كان بين يديه وثب به عبيده فقتلوه.

ولما هزم عمه عبد الله بن علي قائد الجيوش العباسية المظفرة احتمى عبد الله بأخيه سليمان بن علي بالبصرة فأعطاه المنصور أمانا حتى سلم الأخ أخاه. لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره.

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازي أماناته فكتب إليه: "أما أمانك الذي عرضت فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي؟أم أمان أبي مسلم؟ والسلام....".

قيل له: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو. قال: لأن بني مروان لم تبل رممهم بعد، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة.

فهي السياسة إذن تدفعه إلى البطش وتعميه عن المغفرة، والغدر عنده مصلحة عليا، والبطش عنده حكمة بالغة.

لكنه لم يك يختان ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعهده.

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى، ولما هم بالزواج من سواها حجته بعهده، فكان يكتب للفقيه تلو الفقيه، بالحجاز والعراق يطلب في كتاب الشرط رخصة فلا يجد. حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد؟! فهو فيما بينه وبين الله صاحب عهد! أما في السياسة فعهده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان، فإذا أمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذي يستقبل به القضاء ضده، والنصح العنيف له...

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه:

"كلكم يمشي رويد.

كلكم طالب صيد.

غير عمرو بن عبيد".

وكان عمرو شيخا جريئا يطلق لسانه في الملوك وفي الصحابة! قال لأبي جعفر يوما: "إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها. واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده..." فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس: يا عمرو غممت أمير المؤمنين. قال عمرو للخليفة: "إن هذا وأشار إلى الربيع –صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء بابك بشئ من كتاب الله ولا سنة نبيه" قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني. قال عمرو: لا. ادعنا بعد ذلك تسخ أنفسنا بعونك. ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق...

ودخل عليه سفيان الثوري فأغلظ له القول. فسأله أبو جعفر فأجاب. ثم قال: فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير إذنهم. وقد قال عمر في حجة حجها وقد أنفق ستة عشر دينارا هو ومن معه: "ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال" وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال: "رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه، له النار غدا. فقال له أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟ فقال له سفيان: "سكت فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون". ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد: ألا تأمرني بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحدا أحق بالقتل منه. قال أبو جعفر: "اسكت يا أنوك (أحمق) فوالله ما بقى على الأرض أحد اليوم يستحي منه غير هذا ومالك بن أنس".

كانت حالة أحكام عرفية في دولة لم تكد تستقر بعد، يحشد لها القوى من كل حدب وصوب! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع، فهي عنده الثورة، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان. بل إنه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الخليفة. فهي عنده ثورات.

لقد كان يخطب في نفس العام الذي دعى فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول: إنما أنا سلطان الله في الأرض! لقد كان السلطان الذي في يده أضعاف ما كان بيد الملك الذي قال بعد قرون: "أنا الدولة" ونعني له لويس الرابع عشر. وكانت خطبه ملأى بدعوى الحق الإلهي في الخلافة. كان يطربه ويطرب بني العباس أن يقال للرجل منهم: ابن عمك رسول الله!! حريصين على أن يكون ملكهم قائما على رضا الشعب لكنهم لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد، وأشدهم في هذا أبو جعفر حتى حنى له بنو هاشم أنفسهم هامهم العوالي.

قال مالك: "دخلت على أبي جعفر ورأيت غير واحد من بني هاشم يقبل يده المرتين والثلاث! ورزقني الله العافية من ذلك فلم أقبل له يدا!"

ومن أجل ذلك تراه إذ قيل إنه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها، يرجو ألا يذيع في الناس أنباء العطاء والإباء، ففي الرفض ثورة أو استعلاء، وهو لا يقبل الثورة ولا يطيق الاستعلاء. فكيف يعرض عليه القضاء فيقف في وجهه مرة إثر مرة يقول: لا...

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبي حنيفة أن يأبى وأن يصر على الإباء.

فالدولة التي لا تأذن بأن "يخضع السلاح للوشاح" كما يقول المثل البلاتيني، ويضرب فيها القضاة، هي أحرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء. و"إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده". كما قال عليه الصلاة والسلام.

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدي أبي جعفر وبين يدي ابن هبيرة وضرب بالسياط، وكانت أمه إلى جواره تقول: يا نعمان إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه. فأجابها: "يا أمه لو أدرت الدنيا لوصلت إليها ولكني أردت أن يعلم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي فيه للهلكة".

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حماد يقول: قد علمت أن قوتي في الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير). وقد حبسته عني فعجله.

ومكث في السجن أياما معدودات ثم صعدت روه إلى بارئها.

هكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الإكراه، وتعدى الإكراه النفساني باليمين، إلى الإكراه الجثماني بالسجن، وتعدى ذلك كله إلى التعذيب والضرب. فأي جناية تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ... ومهما قيل عن نبالة الغاية فإنها لا ترخص عنه الوصمة والمذمة. فإذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسي أو الجثماني قد سبب موت الشيخ وهو في السبعين فيا هول ما يلقى به ربه أبو جعفر...!

* * *

كان التجنيد للقضاء نهجا نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده. وقديما كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام: "إن خروجه قد أخل بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به" ولقد كلم أبا بكر في أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى ذلك عليه.

لكن عمر لم يفكر في سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة، وإنما تداول الفاروق مع الصديق في إبقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة في الأمصار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة "محتاجون إليه فيما يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره". والفرق بين الخليفتين كالفرق بين التوفيق والاندفاع، بين رجل الله ورجل الملك، وبين خليفة الصديق وخليفة السفاح.

عرض المأمون القضاء على تلميذ أبي يوسف، معلى بن منصور غير مرة فأبى، وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد، موسى بن سليمان الجوزجاني، فامتنع فأجله سبعا وهدده

إن لم يقبل ليعذبنه وليحبسنه فقال له: "يا أمير المؤمنين: قد صح عندي أنك إذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحدا على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهني". فجعل المأمون يقول: أخوين صالحين بمرو. فتفكر ساعة ثم قال للجوزجاني. قم انصرف.

ولما كان بمصر دعا علي بن معبد للقضاء فامتنع، فرجاه في أن يولي أخاه بدلا منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم، فاستعفاه ابن معبد.

ولقد جرت ولاية القضاء في الوسط العلمي على أنها ابتلاء يفزع منه العلماء، فزع الأصحاء، من الوباء! كما جرت على الألسن العبارات التقليدية: "ابتلي بالقضاء. وامتحن بالقضاء". حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختاره الوالي لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه!!

ولى عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر وبلغ الخبر أباه في فلسطين فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! هلك الرجل!

وهذان قاضيان ووال يتداولون في شأن القضاء على أنه (شفير جهنم)!

كتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه ليجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فيولي القضاء أنقذهما. فلما اجتمعا قال إياس للوالي: أيها الرجل سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة الحسن وابن سيرين – وكان لا يجلس إليهما، وكان القاسم يفعل ذلك – فعلم القاسم أنهما إن سئلا أشار إليه فقال: لا تسأل عني ولا عنه. فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياسا أفقه مني وأعلم بالقضاء. فإن كنت كاذبا فما ينبغي أن توليني. وإن نكت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي. قال إياس للوالي: إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف. فقال الوالي: "أما إذ فهمتها فأنت لها.." واستقضاه.

وهذان مذهبان يتلاومان: ولي القضاء ابن سريج فعتب عليه ابن خيزان بقوله: "هذا الأمر لم يكن في أصحابنا.. وإنما كان بلية في أصحاب أبي حنيفة".

بل إنه ليس بلية فحسب. ولا شفير جهنم فحسب. ولكنه: "ذبح بغير سكين".

ولي سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال لها: "اليوم ذبح أبوك بغير سكين" فعلم الناس قبوله القضاء.

ولئن عجبت لاعتبار ولاية القضاء ذبحا بغير سكين، إن العجب ليوفى على الغاية من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير!

وهذا ابن مسكين، من تلاميذ سحنون، يتولى القضاء إذ تكاد السيوف تسلمه للحتوف.

جلس إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين فسأله:

ما تقول في رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة، فامتنع؟ قال: يلزمه أن يلي.. قال الأمير: تمنع. قال: تجبره على ذلك بجلد. قال الأمير الداهية: قم فأنت هو! قال: ما أنا بالذي وصفت وتمنع!! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره، فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبهم.

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك – وكانت جائزته أربعة آلاف دينار – قال: "والله يا أمير المؤمنين لأن يختنقني السلطان أحب إلي من القضاء".. فقال الخليفة السمح: ما بعد هذا شئ وأجازه بألفي دينار.

وكذلك الذي يؤثر أن يختنقه السلطان، هذا الذي قيل إنه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله إليه.

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلي القضاء فامتنع. فأراد أبوه أن يكرهه عليه فسأله أن يمهله ثلاثة أيام يستخير الله تعالى. فمات في الأيام الثلاثة! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه.

ودعي ابن خيزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا بمناولة الجيران من الكوة! فقال الوزير الذي حبسه: "ما أردنا بالشيخ أبي علي إلا خيرا. أردنا أن يعلم الناس أن في مملكتنا رجلا يعرض عليه القضاء شرقا وغربا وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل".

وعرضت الجوائز على الإمام الطبري فرفض، وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض، وأشار عليه صحبه قائلين: لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست. فنهرهم قائلا: "كنت أظن أني لو رغبت في ذلك نهيتموني عنه".

ولما أبطأت عليه النفقة من مدينة آمل حيث كان أبوه ينفذ إليه الشئ بعد الشئ، آثر أن يفتق كمي قميصه فيبيعهما.

وأكره القائم بأمر الله الفيروزآبادي على أن يتقلد له النظر في الأحكام والمظالم شرقا وغربا فامتنع، فوكل به، فكتب إليه: "ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكني معك"؟ فبكى القائم بأمر الله وقال: هكذا فليكن العلماء إنما أردنا أن يقال إنه كان في عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع. وقد أعفيناه.

صنع العلماء ذلك – وأمثاله كثيرة في التاريخ الإسلامي – خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطغى، بل بلغ التحرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل إذا خرج لقدوم الأمير استمساكا بحرمة القضاء كي لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء.

* * *

هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأتهم آثار الفضل التي خلفها لهم سلف صالح في قمة أسمائه أبو حنيفة النعمان، يحملون آثارهم في وجه التاريخ مفاخرين، كما حملوا رءوسهم على أكفهم مخاطرين، وكما صنع أبو حنيفة في عهد القوة القاهرة، والدولة المسيطرة، والمستبد الذي لا يغفر أن تعصى رغبته، ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة!

فلم يكن عدلا لهذا الجبروت إلا ذلك الاستعلاء. ولا كفئا لهذا الطاغية العظيم إلا ذلك الإمام الأعظم.

وبهذا كان الدرس رائعا ونافعا للعلماء ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن حنبل بكى وترحم على أبي حنيفة بعد ما ذاق ابن حنبل من إرهاق في محنة خلق القرآن.

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حيث وضع نفسه أول الأئمة.

لم يقبل ابن حنبل أن يقول إن القرآن مخلوق.. ودعا نائب المأمون إليه العلماء، كما طلب المأمون، يسألهم فوروا ولم يجيبوا، أما ابن حنبل فقال: هو كلام الله لا أزيد على هذا.. فوجه به إلى المأمون بطرسوس، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن،فرد ابن حنبل إلى بغداد مصفدا. ومكث في حبسه ثمانية وعشرين شهرا وفي رجليه أربعة أصفاد.. وأخيرا حمل إلى المعتصم وإلى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر في فتنة خلق القرآن أحمد بن أبي دؤاد وطائفة من العلماء، ليناظروه أياما ثلاثة، فلما كان اليوم الثالث، تقدم الجلادون يضربونه، كل منهم سوطين والمعتصم يقول للجلاد: شد قطع الله يدك. ولما لم

يجد العذاب فيه تقدم المعتصم إليه يقول: إني والله عليك لشفيق.. ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم.

قال قائل يا أمير المؤمنين دمه في عنقي أقتله؟ وجعل آخرون يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم. وأنتفي الشمس قائم!

كانوا يخشون صيامه وقيامه، ويخافون الشمس، ولا يخافون جهنم التي يوعدون.

ثم قال المعتصم: ويحك يا أحمد ما تقول! وعاد يقول للجلاد: أوجع قطع الله يدك! فجعلوا يوجعون. وعاد يقول: أجبني. ويقول للجلادين: أوجعوا.. حتى فقد ابن حنبل وعيه، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فكت، وقال له أحد الحاضرين: إنا كبيناك على وجهك. وطرحناك على ظهرك ودسناك.. وجئ به والدم ينزف منه، وكان صائما وأبى أن يشرب، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة في الظهر والدم يسيل منه. قالوا: كيف تصلي كذلك. قال: "صلى عمر وجرحه يثغب دما".

تعلم ابن حنبل على أبي حنيفة، وتعلم آخرون على ابن حنبل، كزميله البويطي إذ حمل من مصر إلى بغداد ليقول مثل ما دعى لقوله ابن حنبل فأبى ومات في أصفاده، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب.

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الإسلام في كل مقام.

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بني أيوب بمصر عن الإمام القاسم الشاطبي إمام القراءات فدعاه ليمثل أمامه. فبرم الشاطبي بالدعوة وبعث إليه برقعة فيها:

قل للأمير نصيحة لا تركنن إلى فقيه

إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبي وهم يسلكون (شارع الموسكي) إلى أقدم جامعة في العالم! نعني الجامع الأزهر! لكأنما خطت يد التاريخ من ذلك الشارع تمثالا لكرامة العالم، وإن أطلقت عليه اسم الأمير.

* * *

* * *

وفي عهد الأيوبيين أيضا ولي السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ الإسلام أبا محمد العز بن عبد السلام. ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتباره مماليك وتضاف أثمانهم إلى بيت المال! فهاجوا وأرادوا قتله، لولا أن حمته منهم رعاية المساء وحمتهم منه عناية السلطان، فاشتراهم السلطان بماله ودفع إليه الثمن ليصرفه في وجوه البر كما يرى.

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكرا بن قتيبة القاضي الحنفي فيجئ إلى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه،فلما طالبه بلعن الموفق (ولي عهد الخليفة العباسي) توقف وقال: ألا لعنة الله على الظالمين.

وقيل لابن طولون إنما قصدك بهذا القول. فطالبه ابن طولون برد الجوائز التي أجازه بها فأخذها كما هي بخواتمها وسجنه في دار اكتريت له. فكان يجلس في طاق ويحدث الناس بإذن التمسوه من ابن طولون.

فلما عرضت لابن طولون علته التي مات فيها وجه إليه يستحله، فقال للرسول: قل أنا شيخ كبير وأنت عليل والملتقى قريب والله الحاجز بيننا.

ومات ابن طولون فكان بكار يقول: مات البائس.

وكما اجتمع الناس حول بكار في سجنه اجتمع آخرون ليملي عليهم السرخسي من حبسه: في جب السجن في أوزجند: إذ نصح الخاقان فأسخطه فحبسه.

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء. فلما أصيب بالفالج شيخ الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخي، كتب أصحابه إلى سيف الدولة في حلب ليعينه. وبكى الشيخ إذ علم. ودعا الله قائلا: اللهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عودتني.

واستجاب إليه ربه فمات قبل أن تصل إليه عشرة آلاف درهم.

وسأل السلطان علي بن الحسن النيسابوري: لم لا تجئ عندي؟ فقال: "أردت أن تكون خير الملوك إذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك".

ولما تهيأ للحج شمس الدين الخيالي وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين "إن أعطيتني وزارتك وأعطاني السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر"!

obeikandl.com